هو وأمه والذئاب

ولد اسماعيل يتيم الاب فى بيت حقير بقرية صغيرة من قرى الريف ، عاش فيه وحيدا هو وأمه !

ولكن الدنيا اقبلت على امه منذ ولد ، واقبل عليها الرزق لا تدرى من اين يقبل ، وكأنما طلع معه فى سماء البيت كوكب لليمن لا يغرب

اصبحت تشارك على العجلة، فلا تستدير عليها الحول حتى تكبر ، وتهتز ، وتحمل وتباع باضعاف ثمنها الاول

وأصبحت تشترى الفراريج كما يشتريها سواها ، فلا ينفق منها الا القليل ، ولا يبقى منها عند سواها الا القليل

وامتلأ البيت سمنا ولبنا ، ودبت فيه الحياة من خوار العجلة ، وثغاء الشاة ، ونقنقة الدجاج

وشب اسماعيل ، فشب معه كوكب اليمن

كان يستأجر الارض العاقر السبخة بأقل المال ، فتخضر له وتضحك ، وتظل تحت يده وتجود وتنتشر الآفات فى اغلب حقول القرية ، فتترك الزرع زاويا ، عاريا من الزهر والورق ، ثم تمر على حقل اسماعيل فتمسه برفق ، وتتركه فى الجملة يانعا مبارك الثمرات

ويوم يبيع محصوله ، كانت الاسعار ترتفع فى السوق

وتزوج ... لم يطلب مالا ولا جاها ، ولا فكر فى غير شريكة لحياته ، تعينه على عمله فى الحقل وتعين امه على عملها فى الدار ،

فأبى الله الا ان يتم نعمتـــه عليه ، ويهب له كاعبا من كواعب القـريه ، عمهـا شـيخ البلد ، وجمالها حديث الناس ، وسيرتها من اعطر السير ، وهواها له حر لا يخامره زيف ولا عاب

وكان النســاء يسألنها عـن حماتها ، فتقـول لهن ليس لى حمـــاة ، ولـكن لى اما فى بيت اســماعيل ولم يكن اسـماعيل مبـاركا له فى الرزق فحسب ، ولـكن بارك الله له كـذلك فى الاصدقاء .

كان اسـماعيل محسـوبا من اهل القرية جميعا ، وكان يحبهم جميعا ، ويعينهم ما استطاع الى عونهم سـبيلا ، وقـد يؤثرهم بالخير على نفسه فى غير من ، فقـد كان رضى الخلق ، نظيف الروح من الادران ، يكفى الناس يده ولسانه ، ولا يفحش فى قول ولا عمل ، وقد يساء اليه عن غير قصد فيحسن الى من اساء

كان نسخة من امه الطيبة

وعلى ان سواد اهل القرية كانوا احبابا له واصدقاء ، فقد كانوا لا يفتأون يتحـــدثون عن طالعه الميمون ، لا ينفسون عليه ما اتاه الله ، وانما يتأولون حظه ويذهبـــون فيه المذاهب ، كل يغنى على ليلاه

قال جار من جيرانه انه بركة من دعاء والديه الصالحين

وقال اخـــر ان اسماعيل « يخاوى » الجن ، وحلف انه يسمع كل ليلة « اخته » على الباب !

وقـال مـأذون الشرع : ان اسماعيل يصلى ويصوم ويزكى عن ماله اضعافا ، ويعين الناس فيبارك الله له فى كل ما مست يداه ، وذلك فضل الله يؤتيـه من يشاء .

وقال رجل رابع : انه اخـذ عهدا على شـيخ من آل الله فى الزقازيق .. فتبارى القرويون فى الحج الى الزقازيق ، وفى اخذ العهود على الشيخ الذى هناك

ثم جاء رجل خامس وزعم ان اسماعيل يحمل تميمة كتبها له اعرابى من رعاة الغنم استضافه ذات ليله واكرم مثواه ، وان هذا الاعرابى فيه نفحة من روح الله ..

فذهب القرويون يلتمسون راعى الغنم ، وهرعوا اليه بالبيض والسمن والدجاج ، يتوسلون بها اليه ان يكتب لهم تمائم كالتى كتبها لاسماعيل ، فحلف لهم الاعرابى انه امى لا يقرأ ولا يكتب فظنوه يتدلل ، وزادوه الحافا ، واكثروا فى العطاء ، فاعطاهم قصاصات مطوية من الورق ، ومكسوة بالقماش ، ويقايضهم عليها بافدح الاثمان ، ويقول فى نفسه رزق الله على المجانين !

كانت ام اسماعيل الطيبة ترى هذا وتسمعه ، وتعيذ ولدها من شره بالرقى على جسده كل ليلة ، والشب تحرقه ، ثم تتوهم فى تهاويل بقاياه الهشة وجوه اكثر الناس حديثا عن ولدها ، فلا تلعنهم ، وانما تستغفر الله لهم ، وتسحق هذه التهاويل فى اعقاب ولدها وهو نائم ، وتنام مطمئنة لانها سحقت ارواح الشر تحت قدام ولدها المحبوب

لكن ارواح الشر لا تموت !

ففى ذات يوم ظهرت على وجه اسماعيل وبدنه بقع ناتئه حمراء لها ملمس المخمل ، تضرب قليلا الى السواد ، دون ان تؤلم او تسىء .

وانتظر ان تزول فلم تزل ، واخذت تكبر وتتدرن ، وتحجب بالتدريج الملامح السمحة التى كانت تحبب القرويين فى النظر الى وجه اسماعيل

وتورمت خداه واذناه مع الايام ، واستعرض انفه وضخم وانخسف ، وبح صوته ، وانتشر الشعر فى وجهه رتميرا وكمدت عيناه ..

وادركت امه انها العلة التى قتلت اباه ..

وتورمت خداه واستعرض انفه وانتشر الشعر فى وجهه يحجب
الملامح السمحة

ولم يعد خافيا على أحد ان اسماعيل مصاب بالجذام ..

ولكن اسماعيل مع ذلك لم يفتأ يذهب الى الحقل ويزرع ويقلع ، ويحب الناس ، ويكافح المرض السارى فى جسده بقوة جبار .

لكن الناس اخذوا يتهامسون بما قال المأذون فيه :

« كلم المجذوم وبينك وبينه قدر رمح » واخذ تداول الرواية يجعل الرمح رمحين ، ثم ثلاثة ، ثم عشرة ، حتى انفضوا من حوله فى النهاية .. لا يكلمون المجذوم .

وكان يذهب الى المسجد لصلاة الجمعة ، فيجد نفسه مركزا لدائرة متسعة ليس فيها مخلوق ، فاذا اقيم للصلاة ، واصطف المصلون ، ألقى نفسه فى صف وحده ، فتلقى السهم فى كبده واسره ، ولم يعد يذهب الى المسجد للصلاة ..

فقال المأذون : « ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فان اصابه خير اطمأن له ، وان اصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والاخرة »

على ان اسماعيل لم ينقطع فى بيته عن الصلاة ..

واخذ يحمد الله على ان ابقى له اصدقاءه الخلصاء يعودونه ، ويكلمونه وبينهم وبينه قدر رمح ثم ينصرفون عجلين .. ثم يحمده على ان ابقى له زوجته الوفية ، وامه الطيبة ، وكان قلباهما يتمزقان حسرات على الحبيب الذى ظفرت به فى النهاية عيون السوء .

ولجأت الأم الى الاعرابى راعى الغنم ، وكانت مبالغات القرويين قد خلقت منه طبيبا وعرافا وقاضى حاجات ومحضر جن لا يشق له غبار تساله ان يصنع لولدها ، واعطته نصف ما ادخرت فى عمرها الطويل لتحج به الى بيت الله الحرام

ولجأت الزوجة الى الشيخ الذى فى الزقازيق تساله ان

يبارك زوجها ، ويشفع له عند الله فى الشفاء ، فاتى القرية فى موكب حافل من الاشياع ، ونزل ضيفا على عمها شيخ البلد وكان من مريديه ، فوصف المريض منقوع الحناء يشربه مع مرق الفراريج سبعة ايام .. ويدهن أربعين يوما بالمر ممزوجا بالزفت والقطران !

وقال انها وصفة من تذكرة داود التى آلت اليه نسختها الخطية عن جده ، وخرج الشيخ من القرية ومعه حمل بعير من هدايا القرويين ؟..

كان اهل القرية قد نسوا على طول الزمن لماذا اخذوا العهود ، واستكتبوا التمائم ، وظلوا رغم خيبة الامل فى استجلاب الحظ الطيب ، يؤمنون براعى الغنم والشيخ الذى فى الزقازيق .. ويستعينون بهما على تيسير العسير ، وتفريج كربة المكروب ..

حتى أم اسماعيل !

ولم يخطر طبيب الصحة على بال احد فى علاج اسماعيل ، لانه كان فى نظر القرويين .. الدجال الوحيد بين هؤلاء الثقات من العلماء !

وتكاتف الداء ، وصنع راعى الغنم ، ودواء الشيخ الذى فى الزقازيق ، فأطفأت الشموع المضيئة فى عيون اسماعيل ..

واخذت الدرنات والاورام تتفشى فى جسده وبدأت اعصاب اسماعيل تعيى وتنهار ، واخذ الداء يتسلل كاللص المدرب ، يتحيف منه اصبعا هنا واصبعا هناك ، وبات اسماعيل القوى عاجزا لا يقدر على شىء واخذ حتى حساده بالامس ، يمدون شفاههم حزنا ورثاء

وقال الذى كان يرى «اخته» الجنية وهى تطرق بابه ليلا ، انها خاصمته لانه تزوج ، فانتقمت منه شر انتقام

وقال الذى كان يزعم توفيقه بركة من دعاء الوالدين الصالحين لقد كنت اظن اباه صالحا ،لا حول ولا قوة الا بالله ، ان الناس حقيقة اسرار !

ولكن احدا من القرويين لم يتزعزع ايمانه فى قدرة راعى الغنم او سر الشيخ الذى فى الزقازيق !

وعيل صبر الاصدقاء المخلصاء فاخذوا يستمعون لنصائح المأذون الجديدة ،ويفرون من اسماعيل المجذوم فرارهم من الاسد .. وفقد اسماعيل كل سحره عليهم كما فقد سحره من قبل على الفأس والمحراث ..

واصبح كالقبر « يزار كثيرا فدون الكثير ، فغبا ، فينسى كان لم يزر » !

ومع ذلك فقد بقيت له زوجته المخلصة ، لم تفقد املها فى الله ، وفى الشيخ الذى فى الزقازيق ،ان يرد اليها زوجها قويا كما كان ، جميلا كما كان ، ولتكن هى نور عينه أن يكن فقد نور عينه ، ولتكن جوارحه ان كان الداء قد عاث فى جوارحه ، ولتكن امة تسيدها اسماعيل

وبقيت له امه تبيع العجل والشاه والدجاج ، وتنفق على علاجه عند راعى الغنم بسخاء ،وترقيه ، وتحرق الشب ، وتسحق تهاويل بقاياه الهشة فى اعقاب ولدها اسماعيل ..

وكان اسماعيل لايعدم ــ وهو راقد امام البيت يستدفىء بشمس الشتاء ــ رجلا من القرويين يضل طريقه ، ويمر بهذا البيت المحرم فيستحى ويقرئه السلام

وكانت تنبسط له بالتحية احيانا يد صديق من اصدقائه القدماء ، فيشيح بوجهه ، وعينه المغشية بالضباب ، ويتجاهل اليد الممدودة ، ويرفض الصدقة التى يجود بها عليه الاصدقاء كارهين ، ويصرف بكلمة طيبة هذا الصديق الكريم ..

فاذا خلا الى نفسه ، انهلت من ماقيه الضريرة قطرات من الدموع ..

***

مضى الداء لغايته قاسيا لا يرحم ، هازئا بالرقى والتمائم والادعية والصلوات

وفحش منظره ، وكف بصره حتى لم يعد يرى النور

وانقرض من البيت ثغاء الشاة وخوار العجل ، ونقنقة الدجاج ..

وغرب نجم التوفيق فى عين حمئة ، وبدا ان غروبه خالد الى غير شروق

ودب اليأس فى قلب الزوجة من شفاء هذا الجسد المستحيل

واخذت اذا طلب شربة الماء فى غياب امه تضع يدها على انفها ، وتدخل عليه بالجرة فتضعها بجواره ، ثم تنطلق كالسهم لا تلوى على شيء ..

واخذت تحدث نساء القرية عن سوء طالعها وتبكى جهدها الضائع ، وقرطها الذى اخذته منه شيخ الزقازيق ، وتذكرت ان لها حماة !

وفرت هى الاخرى فى النهاية من زوجها المجذوم ..

لقد فقد اسماعيل سحره على الزوجة الوفية ، كما فقده على الاصدقاء الخلصاء وكما فقده من قبل على الفاس والمحراث .

ولكنه لم يفقد سحره على امه ...

بقيت له تسقيه وتعطش ، وتطعمه وتجوع ، وتقبل الشفاه التى انف من تقبيلها ملاك الموت وتبيع كل دنياها لتشتريه جيفة وتسال الله ان يجعلها فدية لولدها الحبيب المسكين

وبقيت له فى النهاية امه والذباب .. وملاك الموت يرفرف عليه من بعيد .